إعلان السرّ المسيحانيّ في أف ١:٣-١٣

رسول الأمم وكتابات اليهودية الأولى

دانيال عيوش

يأتي الكلام عن "سرّ المسيح" (باليونانية mystérion toû Christoû) في أف ٣:٤، أيّ في مقطع من الرسالة يتميز بسبب إهتمام الرسول بتفسير مقصد هذا السرّ للمؤمنين. ويجد المفسّرون أن استعمال الكاتب لكلمة "سرّ" مبنيٌّ على تعاليم أسراريّة وغنوصيّة يعود أصلها إلى الثقافة الهلينستيّة، فيعتبرون أنّ واضع الرسالة تبنّى هذه الاعتقادات من أجل شرح الإيمان بالمسيح[١]. في هذه المقالة نعرض الرأي الآخر لهذه المسألة في محاولة تفسير أبعاد السرّ المسيحانيّ بالمقارنة مع نصوص اليهوديّة الأولى، وذلك لأنّ الكتابات البولسيّة تتجذّر في تقليد العهد القديم مضمونًا، وإن كانت تلتجئ إلى بعض الأساليب اللغويّة والفلسفيّة الهلينستيّة شكلاً[٢].

السرّ في رسائل بولس

ترد العبارة "سرّ" ٢٨ مرة في العهد الجديد؛ ثلاث مرات في قول مشترك للإزائيّين الثلاثة[٣]، ٢١ مرة في الديوان البولسيّ[٤]، و٤ مرات في رؤيا القديس يوحنا[٥]. تساعدنا هذه المعلومات الإحصائية على أن نستنتج أنّ العبارة "سرّ" هي بولسيّة بامتياز، ولذا كانت الرسائل البولسية المكان الأفضل لفهم معنى هذا المصطلح الأساسيّ. ترد كلمة «سر» ٩ مرات في الرسائل الأصليّة، و١٢ مرّة في الرسائل المنسوبة إلى بولس، وخصوصًا في أفسس (٦ مرات) وكولوسي (٤ مرات)[٦].

1- Conzelmann / Lindemann, *Arbeitsbuch zum Neuen Testament* (UTB), Tübingen, [12]1988, 300-302; Bornkamn, G., "Mysterion", in: *ThWNT* IV, 818-820; Goetzmann, J., Sabiduria, "Necedad", in: *DTNT* IV, 126s. Pokorny, P., *Der Epheserbrief und die Gnosis*, Berlin, 1956 (نجد عند بوكورني دراسة مفصلة لهذا الموضوع في رسالة أفسس).

٢- لئن كان بولس يستعمل عبارات وأفكار هلينستية ووثنية (مثل فعل "يرمز" – allegoreo – في غل ٤: ٢٤، وعبارة "ملء" – pleroma – في أف ١: ٢٣؛ ٣: ١٩)، إلا أنّ هذه العبارات والأفكار وظيفتها أن تساعد القارئ الذي هو من أصل غير يهودي أن يفهم ويقبل البشارة بالمسيح يسوع. يعبر القديس بولس نفسه عن هذا المبدأ الأساسي لطريقة تعليمه في ١كور ٩: ٢١–٢٣. أنظر في هذا الخصوص: طرزي، بولس، **مدخل إلى العهد الجديد**، الجزء الأول: **بولس ومرقس**، بيروت، ٢٠٠١، ٢١–٢٧؛ Cothenet, E., *San Pablo en su tiempo* (CB 26), Estella (Navarra) 1988, 22-24

٣- في مت ١٣: ١١؛ مر ٤: ١١؛ لو ٨: ١٠.

٤- في روم ١١: ٢٥؛ ١٦: ٢٥؛ ١كور ٢: ١؛ ٢: ٧؛ ٤: ١؛ ١٣: ٢؛ ١٤: ٢؛ ١٥: ٥١؛ أف ١: ٩؛ ٣: ٣؛ ٣: ٤؛ ٣: ٩؛ ٥: ٣٢؛ ٦: ١٩؛ كول ١: ٢٦ي؛ ٢: ٢؛ ٤: ٣؛ ٢تس ٢: ٧؛ ١تي ٣: ٩؛ ٣: ١٦.

٥- في رؤ ١: ٢٠؛ ١٠: ٧؛ ١٧: ٥، ٧.

٦- للمزيد من المعلومات حول المصطلح "سرّ" في الرسائل البولسيّة ومدى تأثّر الكاتب من الأدب الحكميّ الرؤيويّ اليهوديّ راجع مقالتي: "سرّ الحكمة في الرسائل البولسية"، في: الفغالي، بولس (محرر)، **بولس ورسائله** (د.ب. ٢٣)، بيروت، ٢٠٠١، ٣٤٥–٣٥٧.

السرّ المكتوم منذ الدهور

بعدما عرضنا هذه المعلومات الإحصائيّة واللغويّة، يمكننا أن ننتقل إلى تحليل أف ٣: ١-١٣. يأتي السرّ في هذا المقطع الكتابيّ كمعرفة تنبثق عن الله وتشير دائمًا إلى عمل يسوع المسيح وخصوصًا إلى آلامه وقيامته، كما يؤكّد الكاتب نفسه في المقطع السابق وخصوصًا في أف ٢: ١٥-١٦. هذا السرّ أُعِدّ قبل خلق العالم، وبقِي خفيًّا منذ بدء الدهور، كما نقرأ في ٣: ٩: "وأنير الجميع في ما هو شركة السرّ المكتوم منذ الدهور في الله خالق الجميع بيسوع المسيح."[٧] في هذا الخصوص نجد طرحًا شبيهًا في ٤٨: ٦-٧ من كتاب أخنوخ الأثيوبي الذي ينتمي إلى الأدب الحكميّ الرؤيويّ اليهوديّ. يقول كتاب أخنوخ أنّ المختارَ يأتي بالأحكام التي أوكله الله بها لكشف سرّ الحكمة الإلهية المعدّ منذ ما قبل الخليقة:[٨] "لهذا صار (ابن الانسان)[٩] المختارَ، وذاك كان خفيًا لديه قبل خلق العالم وحتى مجيء الدهر ولكن حكمة رب الأرواح كشفته للقديسين والأبرار."[١٠]

السرّ والمستمعون إليه

والسرّ، بالعودة إلى القديس بولس، ليس سرًّا لأنّ الله أدركه في الخفيّ فحسب، بل أيضًا لأنّه يحتوي على أمور لا تخطر على بال الشعب المؤمن القديم وهي أنّ السرّ الإلهيّ تجسّد وانتشر في العالم لخير جميع الأمم: "(السرّ) الذي في أجيال أُخَرَ لم يُعرَّف به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح: أنّ الأممَ شركاءُ في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح بالإنجيل" (أف ٣: ٥-٦). وإذا كانت المسكونة كلها شريكة في الميراث، فالسرّ الإلهيّ صار يهمّ الخليقة بأسرها.[١١] بإعلان هذا السرّ يُفهَم عمل الخلق وغايته، البداية والنهاية (كول ١: ١٥-٢٠). الحقيقة كلّها تُقرأ بطريقة جديدة. لهذا تبلغ الأزمنة، في إعلان السرّ الإلهي، نهايتها (أف١: ١٠)، لتبدأ حقبة جديدة.[١٢]

السرّ وحامله

ثمة جانب أساسيّ للسرّ بحسب القديس بولس، وهو مشاركة الرسول، في عمل الخلاص من خلال إعلان سرّ المسيح للأمم. هذا ما يتطرق إليه واضع الرسالة في أف ٣: ٧-٨ و٦: ١٩-٢٠، فيُعتبَر بولس "خادمًا" للإنجيل الذي به يُعلَن السرّ، و"مبشِّرًا" بين الأمم بهذا السرّ حتى يمتدّ عمل المسيح الخلاصيّ بواسطة بولس، "السفير في السلاسل"، إلى كل البشر.[١٣] وفي أسفار الأدب الرؤيوي اليهودي نجد أيضًا أنّ حامل الإعلان يلعب دورًا جوهريًّا وتأسيسيًّا في مضمون السرّ وإعلانه. هذا ما نقرأه مثلاً في رؤيا باروك السريانية ٨١: ٤ - ٨٢: ١ حيث يؤكّد الكاتب دوره كحامل السرّ الإلهيّ: "فصنع القدير بحسب كثرة رحمته، والعليّ بحسب عظمة حنانه. كشف لي كلمة كي أتعزّى... وعرّفني أسرار الأزمنة... لهذا كتبتُ إليكم، يا إخوتي، كي تتعزّوا من وفرة الضيقات".[١٤]

٧- راجع أيضًا روم ١٦: ٢٥؛ ١كور ٢: ٨؛ كول ١: ٢٦.

٨- في خصوص انتظار المسيح في النصوص الرؤيوية الحكمية، راجع أيضًا ١أخن ٤٩: ٢-٣؛ ٥١: ٣؛ دا ٧: ١٣-١٤؛ قمران / نج ٩: ١١؛ رؤباس ٢٩-٣٠.

٩- راجع الآية ٢.

١٠- يجدر الذكر أن كل الاستشهادات من كتابات اليهودية الأولى الواردة في هذه المقالة مأخوذة من ترجمة الأب بولس الفغالي في السلسة "على هامش الكتاب" المنشورة في الرابطة الكتابية.

١١- راجع كول ١: ١٥-٢٠. لاحقًا يسمي كول ١: ٢٤-٢٩ عمل المسيح هذا "سر الله المعلن في قديسيه".

١٢- نجد في الأدب الرؤيوي الحكمي المقاربة ذاتها لهذا الموضوع بحيث أنّ إعلان السرّ حدث عالميّ يخص البشرية كلها كما نقرأ في قمران/ نج ٣: ١٥-١٧؛ ٤: ١٨-٢٣؛ ٤عزرا ١٤: ٥؛ ١أخن ٦١: ٥.

١٣- أنظر مثلا روم ١٦: ٢٥-٢٧؛ ١كور ٢: ١؛ أف ٦: ١٩؛ كول ١: ٢٤-٢٩ ١تي ٣: ١٦.

١٤- راجع أيضًا قمران/فحب ٧: ١-١٧؛ دا ١٢: ٤ و ٨-١٣.

السرّ والحكمة الإلهية

من ميزات السرّ المهمّة عند القديس بولس علاقته المباشرة بحكمة الله. بهذه الطريقة يقدّم القديس بولس إلى المؤمنين نظرة جديدة إلى العالم لا علاقة لها بالهوى أو الظرف لأنّها لا تصدر عن عقل بشريّ، بل تنبثق من الحكمة الأزليّة السماويّة التي أراد الله إعلانها الآن كما يقول في أف ٣: ١٠-١١: "لكي يعرّف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة حسب قصد الدهور الذي صنعه في المسيح يسوع ربنا."[١٥] يوضّح الكاتب هنا أنّ تعليم الرسول ليس تغيير خطة في التدبير الإلهي بل إتمامًا لإرادته، ويؤكّد أنّ حكمة الله هذه لم ينلها الرسول عن طريق التنظير البشريّ بل عن طريق إعلان يسوع المسيح إلى عبيده الرسل وإلى كل الكنيسة. وأخيرًا يجدر الذكر أنّ السرّ المعلَن بالتبشير لا يعطي للمؤمن حكمةً من أجل القدوم إلى الرب فحسب، بل يعطي أيضًا حكمةً بالمعنى العمليّ للكلمة، أي طريقة جديدة للعيش لكي يعرف المؤمن أنْ لا يكلّ في الشدائد ويظهر كاملاً أمام المسيح حين يأتي (أف ٣: ١٢-٣١).[١٦] وفي الأدب الرؤيوي الحكمي نجد أيضًا مبدأ العلاقة بين السر والحكمة، كما يقول، في سبيل المثال، سفر أخنوخ الأول ٥١: ٣: "في ذلك الوقت يجلس المختار على عرش الله، بفمه تعلن كل أسرار الحكمة لأنّ رب الأرواح أعطاه إياها ومجّده."[١٧]

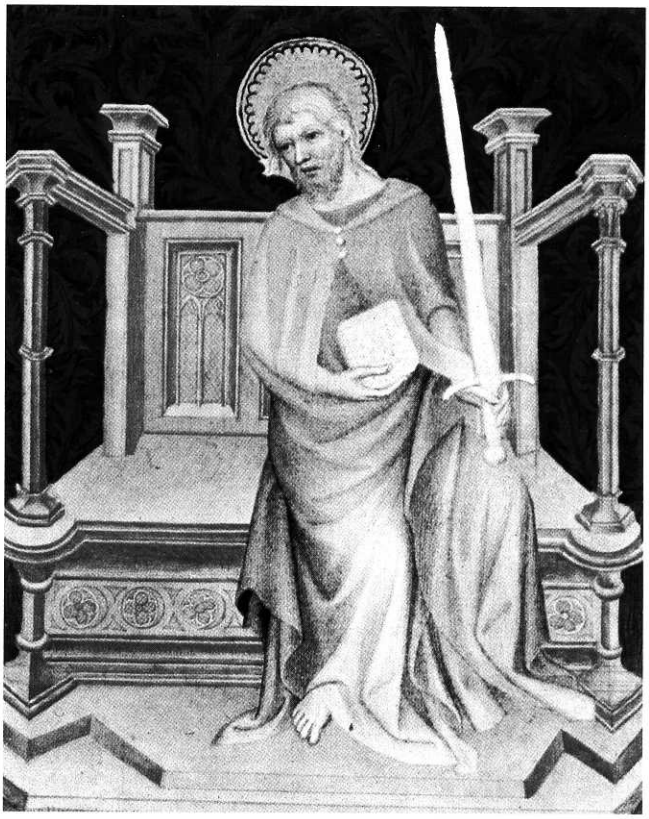

القديس بولس مُغرقٌ أبداً في السر الإلهي.
رسم للفنان الفرنسي أندريه بونوفيه — André Beauneveu de Valenciennes (النصف الثاني من القرن الرابع عشر)، محفوظة في باريس، فرنسا.

خاتمة

يعلن بولس الرسول في أفسس السرّ المسيحاني إلى كل الأمم بناءً على أقوال يسوع المسيح وأعماله وتلبيةً لرجاء الشعب المنتظر والمؤمن بكلام الأنبياء الأبرار. وفي قلب هذا السرّ نجد الصليب الذي به فتح الله وعده بالخلاص إلى كل الأمم، ووحّدهم في إنسان جديد لا يعرف غريبًا ولا عدوًّا بل يعيش بالسلام مع القريب (أف ٢: ١١-١٦). لم يكن أحد يعرف هذا السرّ. حتى الشعب المؤمن في العهد القديم الذي كان يعرف محبّة الله ورحمته وكان ينتظر أعمال الله الخارقة، لم يعرف مدى تأثير هذا السرّ. الله وحده يعرفه بحكمته منذ الدهور وقرّر كشفه للبشر بواسطة المسيح وخدّامه الرسل. الآن الكلّ مدعوّ إلى الخلاص والسرّ يُعطَى لمَن ينتظره بقناعة وإيمان.

١٥- راجع أيضًا روم ١٦: ٢٥-٢٧؛ ١كور ٢: ٦-٩؛ كول ١: ٢٤-٢٩.

١٦- ثمة نصوص أخرى مهمة تربط الحكمة بالسرّ، وهي روم ١١: ٢٥-٣٦؛ أف ١: ٧-١٢؛ كول ٢: ١-٣؛ ٤: ٢-٥.

١٧- راجع أيضًا قمران/نج ٤: ١٨.